(٦) وصال مع الإخوان

د. القرضاوى:

- عرفنى الإخوان المسلمون شاعراً وانضممت إليهم فى (١٩٤٤)م.
- أول تخشيبة دخلتها فى حياتى فى مركز زفتى، وكاد حذائى يدل القلم السياسى على وجودى !.
- نقلنى الاتصال بالإخوان إلى النظرة الشاملة للإسلام وليس مجرد التدين الفردى.
- لا أتنكر لدعوة الإخوان ولا أجحد نشأتى فى ظلها، لكنى مستقل الآن فى العلم والفكر.
- من الأزهر إلى الإخوان إلى الاستقلال : رحلة مسيرتى ملك للأمة الإسلامية.
- مرشحة الإخوان بالإسكندرية توزع فتواى بحق المرآة فى الانتخاب والترشيح على الناخبين.
- شاركت فى المظاهرات، من أجل المطالب الوطنية والقضايا الإسلامية.

obeikandl.com

(٦) وصال مع الإخوان

من الأزهر خرج الفقيه المعاصر د. يوسف القرضاوى، وإلى أكبر جماعة إسلامية فى العصر الحديث انضم الفتى الأزهر أول الأمر شاعراً ثم داعية إلى الإسلام.. وعبر وقفات عدة فى تاريخ الرجل — فى هذه الحلقات — كانت وقفة مع تجربة الاعتقال الأولى، وماذا حملت له أو أضافت إليه ثم كيف يرى القرضاوى الآن الجماعة التى نشأ فيها، هل مازال مرتبطاً بها ؟ أم صار ملكاً للأمة الإسلامية ؟ فى هذه الحلقة يلقى الضوء على جانب من جوانب هذه العلاقة التى بدأت من الأربعينيات حتى اليوم، وإلى أين صارت وأصبحت ؟.

• بعد دخول الأزهر؛ وفى مرحلة تعليمية مبكرة نبت الوصال مع أكبر جماعة إسلامية فاعلة فى التاريخ الحديث : كيف بدأ الإعجاب، ثم الارتباط؟

بدأ اتصالى بالإخوان إعجاباً أول الأمر بشباب الإخوان، خاصة الجوالة الذين كانوا يحملون المصاحف ويجوبون الشوارع وهم يهتفون: "الله أكبر، ولله الحمد، لا إله الله محمد رسول الله عليها نحيا، وعليها نموت، وفى سبيلها نجاهد حتى نلقى الله.."

• لكننى أسأل عن بدء معرفتك بحسن البنا ؟

استمعت إلى الإمام الشهيد حسن البنا وأنا فى السنة الأولى الابتدائية فى الأزهر بمعهد طنطا الدينى، كان يأتى إلى طنطا لإحياء ذكرى الهجرة، وأقام الإخوان حفلاً لهذه المناسبة، ودعوا الإمام البنا له، وكان ابن عمتى الذى أسكن معه قد أراد أن يذهب لهذا الحفل ويتركنى، وقال لى: أنت صغير، لكنى أردت أن أسمع الشيخ البنا، وسمعته: كان يتحدث حديثا جديداً، فطالما سمعنا الناس يتحدثون عن الهجرة، وقصتها والغار والعنكبوت، لكنه قال: "إن قصة الهجرة ذكرها الله فى آية فى القرآن الكريم: ﴿ **إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ﴾ [التوبة: ٤٠]، إنما المهم العبرة من الهجرة، فالهجرة كانت حداً فاصلاً بين عهدين: عهد تربية الفرد فى مكة، وعهد إقامة الدولة فى المدينة، وكان الفرد فى بمكة يقوم على دعائم.. والدولة فى المدينة تقوم على دعائم كذا..". وظل الشيخ البنا يشرح القضية شرحاً شدنى، وملأ قلبى وعقلى فى ذلك الوقت، وظللت أحاول أن أتتبع الشيخ كلما جاء إلى طنطا لأستمع إليه، ولكنى لم أكن أعرف: وماذا بعد ذلك ؟ إلى أن اتصلت بشعبة الإخوان فى طنطا، حيث دعونى لأشارك فى

ندوة شعرية، وذلك من خلال معرفتى بى فى المعهد الأحمدى، فقد دعيت كشاعر وألقيت قصيدة كان مطلعها:

قلبى يحسُّ برحمةٍ تتدفق ويرى الملائكةَ حولَنا قد أحدَقُوا

وقد ضاعت كما ضاع غيرها وقت المحن المختلفة، ومنذ ذلك الوقت بدأ اتصالى بدعوة الإخوان وحضور جلساتهم وندواتهم.

• كيف تمت الوصلة الأولى الفعلية فى الانضمام إلى الجماعة ؟ هل تطلّب ذلك بيعة محددة ؟

أبدأ، بدأ الاتصال الأدبى هذا وأنا فى السنة الرابعة من الابتدائية الأزهرية، والسنة الأولى من الثانوية، وبدأ الإخوان يوثقون صلتهم بى أكثر، ويكلفوننى بالدعوة، لا فى المعهد الأحمدى فقط بل خارجه أيضاً، فى المدن والقرى حول طنطا، أذهب كل يوم جمعة إلى بلد وأخطب وألقى درساً بعد الصلاة، وأدعو بدعوة الإخوان، وأدعو الناس إلى الانضمام لها.

ولم يتطلب الأمر بيعة، بل حسبنا أن نملأ ورقة ونسجلها ونقول: إننا أصبحنا من الإخوان، وقد بدأ كهذا الأمر بالنسبة لى فى السنة الرابعة من الابتدائية الأزهرية، وأصبحت أعتبر نفسى عضواً فى جماعة الإخوان المسلمين، وفى الثانوية أصبحت عضواً مهماً فى نشر الدعوة، سواء فى داخل النطاق الطلابى أو خارج نطاق المعهد.

الانضمام إلى الإخوان

• ماذا أضاف الانضمام إلى الإخوان المسلمين للشاب الأزهرى يوسف القرضاوى الذى يمارس الدعوة إلى الله قبل الانضمام إلى الإخوان ؟

الواقع أن اتصالى بالإخوان نقلنى نقلة جديدة، غير النقلة من (صفط تراب) إلى المعهد الدينى، أصبحت أنظر إلى الإسلام نظرة شاملة، إنه ليس مجرد تدين فردى، بل مصحف وسيف وعبادة وقيادة وصلاة وجهاد، أصبح من هذا المفهوم الشامل هو أنه لا يكفى الإنسان أن يكون متديناً فى نفسه، ويدع المجتمع من حوله يعج بالفساد أو يحكم بغير ما أنزل الله، وإنما يجب أن يقاوم المنكر، ومن هذه المنكرات الحكم بغير ما انزل الله، وأنه يجب أن تقام حدود الله، وأن تحكم شريعة الإسلام.. كما أن النظرة خارج الوطن كانت من مظاهر النقلة

الجديدة، فإن المسلمين ليسوا هم أهل مصر فقط. ولكن المسلمين فى أنحاء العالم لهم حقوق، فيجب أن نهتم بقضية فلسطين، وبقضايا المسلمين فى العالم، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

● هل قمت بممارسة هذه المفاهيم فى فترة النشأة المبكرة ؟

نعم. كنت أعمل داعية ومنتدباً إلى بلاد كثيرة خارج طنطا: إلى المحلة الكبرى، وإلى بسيون وإلى زفتى، وكفر الزيات، وكفر الشيخ، وطلخا، وبلقاس، ونبروه.. كان عندى مدى واسع لنشر الدعوة فى هذه المنطقة.

● كيف تأهلت للقيام بالدعوة الإسلامية فى هذه السن المبكرة ؟

آتانى الله القدرة على أن أُقنع الخاصة وأُفهم العامة، ولى طريقة فى إقناع العوام أو إفهامهم لضرب الأمثلة، وكنت أحفظ كثيراً من الأمثال الشعبية، وكنت فى وقت من الأوقات أسجل هذه الأمثال فى (نوتة) عندى فيها آلاف الأمثال التى يتداولها الناس، وكان ذلك كله يساعدنى على نشر الدعوة.. كما كنت أساهم بالشعر، وكنت مشهوراً به، وإذا ذكر القرضاوى يقولون الشاعر، فكنت ألقى الشعر فى المحافل الكبيرة.

هذه مشاركتى فى قضايا الوطن

● ما هو موقفك من قضايا الوطن فى هذه الفترة ؟ هل شاركت فى مظاهرات ؟ وما هى رؤيتك لمشاكل مصر فى هذه الحقبة الهامة من النضال ؟

فى هذه الفترة كانت المطالب الوطنية فى مصر على أشدها، بعد الحرب العالمية الثانية، وبدأ الإخوان يقيمون مؤتمرات وطنية لتوعية الناس بتلك المطالب، ومازلت أذكر المؤتمر الكبير الذى عقد فى ساحة البلدية فى مدينة طنطا، وحضره جمع كبير، ونكلم فيه الإمام البنا وشرح فيه هذه المطالب، تحدث لأول مرة من قضيتنا ووسيلتنا ودعوتنا، وتحدث عن قضية الوطن : الوطن الصغير والوطن الكبير، والوطن الأكبر. الوطن الصغير هو وادى النيل : لم يقل : مصر بل وادى النيل، لأن وحدة وادى النيل أمر مقرر، وكان يقول : إن مصر هى السودان الشمالى، والسودان هى مصر الجنوبية، والوطن الكبير هو الوطن العربى من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى (كانت كلمة الخليج العربى غير منتشرة فى ذلك الوقت)، والوطن الأكبر هو الوطن الإسلامى من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى، وقضايا العرب وفلسطين، وقضايا المسلمين، ووسائلنا فى الحصول على هذه القضايا.

وقد شاركت بمجهودى بالشعر والنثر، وقيادة المظاهرات من أجل المطلب الوطنية ومن أجل القضايا العربية والإسلامية مثل قضية فلسطين، وكنا كل عام فى الثانى من نوفمبر وبمناسبة وعد بلفور نخرج فى مظاهرات للتذكير بقضية فلسطين، والقضايا الإسلامية مثل قضية كشمير وقضايا المغرب العربى: تونس والجزائر ومراكش، أحيانا نصطدم بالشرطة ونؤخذ إلى أقسامها ونضرب.

● **ما هو موقفك والإخوان من مشروع وطنى مثل مشروع صدقى – بيفن ؟**

أيد الإخوان صدقى، وظنوا أنه يستطيع أن يأتى بالخير، ثم وقفوا ضده وقاوموه، وقاموا مشروعه مع بيفن وزير خارجية بريطانيا، وخرجنا بالمظاهرات، وفى الليل اصطدمنا بالبوليس وأخذنا إلى أقسام الشرطة.. كانت هذه الفترة فترة نشاط مكثف باستمرار، وكنت فى هذا الوقت مسؤلاً عن طلاب الإخوان فى معهد طنطا الدينى، كنت مندوب الإخوان، كان الإخوان يقيمون مندوباً لهم فى الجامعات والمعاهد، فكنت مندوباً لهم منذ الثالثة الثانوية، فى المعهد الابتدائى والمعهد الثانوى، وكان عندنا معهد آخر اسمه معهد المنشاوى، وهو معهد حر لطلاب المعاهد الدينية فى طنطا فى ذلك الوقت فى المرحلة الثانوية.

أول تخشيبة فى حياتى

● **ما هو الحديث الأهم الذى يمكن اعتباره أول تعامل بينك وبين السلطة فى هذا الوقت ؟**

كنا فى السنة الخامسة ووقع وعد بلفور، وفى ٨ ديسمبر ١٩٤٨ م فى عهد حكومة النقراشى وقع الحل الأول لجماعة الإخوان، وأصبح الإخوان مطاردين فى ذلك الوقت، وصرنا مطلوبين للاعتقال، وبعد مدة قريبة اغتيل النقراشى، وازداد الأمر صعوبة وتعقيداً، وكنت مطلوباً للاعتقال، ولما أحسست بذلك انقطعت عن الذهاب للمعهد، وذهبت أنا وأخ من الإخوة صديق لى ورفيق فى الدراسة وفى السكن وفى الدعوة، هو الأخ محمد الدمرداش رحمه الله، ذهبت أنا وهو لنختفى فى قريته، أما فى قريتنا فقد ذهبوا إلى بيتنا وفتشوا، ولم يجدوا شيئاً، ولكن بقليل من الذكاء عرفوا أننى طالما اختفيت أنا ومحمد صديقى، فمن المعقول أن نذهب إلى بلده، قريته واسمها (السلاوية) مركز زفتى، ذهبنا إلى هناك وبقينا أياماً.

وفى أحد الأيام أحسسنا أن هناك حصاراً على القرية، وهناك من يدق الباب بشدة، فعرفنا أنه بوليس المباحث، فقفزنا من فوق السطوح – كنا فى الدور الثانى – وذهبنا

إلى بيت الجيران، وأنت تعرف أن بيوت الفلاحين مُسْلمةُ بعضها إلى بعض، فدخلنا، وهناك جاءت صاحبة البيت فأدخلتنا فى حجرة، وأغلقت علينا، وخرجت إلى الحقل، ودخلوا هم بيت الأخ محمد، ووجدوا والدته هناك، سألوها أين ابنك وأين الضيف الذى معه؟ فقالت : ابنى فى طنطا، قالوا : ليس فى طنطا وإنما هنا قالت : لا ؛ إنما أخذ الزوادة وذهب إلى طنطا (الزوادة : قطعة من القماش يوضع فيها أنواع مختلفة من الطعام يتزود به المسافر أو المنتقل إلى مكان ليقيم فيه..) صعد البوليس إلى أعلى فوجدوا أحذيتنا موجودة، قالوا لصاحبة المنزل أم أخى محمد، دلينا عليهما، قالت : هذه أحذية من زمان، فراحوا يفتشون فى بيت الجيران، ودخلوا الحجرة التى كنا مختبئين فيها، وسألوا عن مفتاحها، فقيل لهم : إن صاحبة البيت ليست هنا، خرجت، فقاموا بأخذ والدة الأخ محمد إلى نقطة البوليس، وبعد مدة تركوا بعض المخبرين حول البلد وغادورها.. ولما هدأت العملية عرفنا الأمر، وأخذنا نفكر، فالأمُّ امرأة كبيرة وسيتعبونها، فلم نجد بداً من أن نسلم أنفسنا وتم الأمر، ونقلنا إلى مركز زفتى يوم الخميس ليلة الجمعة وذهبنا إلى التخشيبة.

- **هل تذكر شيئاً عن تلك الليلة فى أول تخشيبة ؟**

وجدنا جماعة من المسجونين بمخالفات، قلنا لهم : تعالوا صلوا العشاء معنا، وصلينا العشاء والفجر، ودعوناهم لقراءة القرآن ثم المأثورات، فقالوا: لا نعرف المأثورات (يقصد بها أدعية نبوية مأثورة انتقاها البنا وجعلها ورداً يومياً للإخوان المسلمين). قلنا : اسمعوا.. ورددنا.. وعندما نأتى إلى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يردد معنا أكثر من خمسين رجلاً من الموجودين التسبيح، جاء الشاويش وقال : أنتم قلبتوها جامع ! يومها نقلنا فى المساء إلى طنطا، وكان فيها رئيس القلم السياسى أو القسم المخصوص، كما كان يسمى فى ذلك الوقت، وكان هذا الرجل معروفاً بأنه شرير، وهو (سعد الدين السنباطى)، تكلم معنا: كيف أنتم أيها الإخوان، هؤلاء يعنى بناقص مئة ألف، نصف مليون، البلد فيها عشرون مليوناً، فلتكن تسعة عشر ونصفاً، ماذا يجرى؟ نقلنا وبقينا محجوزين مدة من الزمن إلى الثانى عشر من فبراير، وهو اليوم الذى استشهد فيه الإمام حسن البنا، حيث جاءنا الخبر وقرأناه فى الصحف (مصرع الشيخ البنا)، ونقلنا إلى الهايكستب (المعتقل) وهو فى ضواحى القاهرة، ثم إلى الطور الذى أفرج عنا منه بعد سقوط وزارة إبراهيم عبد الهادى، وبعد اعتقال ٩ أشهر.

هل أعدت النظر ؟

● **إذا كان هذا الاعتقال هو الأول فى تاريخك، فمن المنطقى أن يدفعك إلى إعادة النظر فى الطريق الذى اخترته.. هل فكرت فى الابتعاد عن طريق يفضى بك إلى الاعتقال، وما هى ذكرياتك داخل هذا المعتقل ؟**

عمَّق اعتقالى ٩ أشهر انتمائى لجماعة الإخوان المسلمين، وعمق انتماء الآخرين من زملائى، فالمعتقل فرصة هائلة للتوعية والتثقيف والتعميق والتثبيت، وفى معتقل الطور الذى مكثت فيه أغلب فترة الاعتقال هذه كان معنا فضيلة الشيخ محمد الغزالى رحمه الله، وكنا نستيقظ قبل الفجر بساعتين حيث تبدأ الحركة فى عنابر المعتقل، الذى كان منقسماً إلى سلسلة من الممرات، وكان أحد الأخوة يمر على النائمين ليوقظهم بصوت جميل منادياً:

يا نائماً مستغرقاً فى المنام ... قمْ فاذكُر الحىَّ الذى لا يَنام

مولاك يدعوكَ إلى ذِكرِهِ ... وأنتَ مشغولُ بطيبِ المَنام

وكان صوت قراءة القرآن يدوى فى العنابر، فإذا أذَّن الفجر توجهنا إلى المسجد للصلاة، وبعد الصلاة ننتظم فى حلقات علمية مع الشيوخ الذين نرافقهم فى المعتقل، مثل الشيخ محمد الغزالى والشيخ سيد سابق رحمهما الله، والشيخ عبد المعز عبد الستار وهم جميعاً من شيوخ الجماعة، كنا نستمع إليهم حتى قبيل طلوع الشمس، فنبدأ فى أداء التمرينات الرياضية، ثم نتناول الإفطار، فعمليات التنظيف للعنابر والأسرَّة والقيام بمهام المطبخ، وكانت توزع دورياً على كل عنبر، ثم يبدأ الشيوخ فى إلقاء المحاضرات الدينية والفكرية، وكانت محاضرات الشيخ الغزالى بعد ذلك هى كتابه (الإسلام والاستبداد السياسى)، وهناك المناقشات والأناشيد أيضاً.

● **هل ترى تلك الصورة معتقلاً أم معسكراً إخوانياً ؟**

نعم لقد كان معسكراً إخوانياً، لذلك فقد أطلقت عبارة فى حينها، هى أن معتقل الطور هو المعسكر الدائم للإخوان المسلمين لسنة ١٩٤٩م، السفر والمصاريف والتكاليف على حساب الحكومة المصرية!.

● **كيف واصلتم الدراسة بعد الإفراج عنكم ؟**

كنا ضمن أول دفعة يتقرر الإفراج عنها، وكان ذلك قبل امتحان الدور الثانى من الشهادة الثانوية الأزهرية بحوالى (١٧) يوماً، وقد فاتنى الدور الأول، رغم إننى قدمت طلباً للتقدم له أنا ومن كانوا معى، لكن لم يستجب إليه، وقمت فى هذه الأيام المتبقية على الدور الثانى بالتفرغ بالبيت، ومراجعة الدروس، حتى أكرمنى الله تعالى بنجاحى بتفوق، وكنت صاحب الترتيب الأول، واقتسمت الجائزة مع صاحب الترتيب الأول، وحصلت على ستة عشر جنيهاً مصرياً ونصف جنيه.

● **أعجبت بالشيخ حسن البنا: كيف استقبلت خبر مصرعه قبل خروجك من معتقل الطور ؟**

كان الإمام حسن البنا أملاً للمسلمين، وذلك بما منحه الله من مواهب وقدرات فى فهم الحياة والسياسة، وبما تميز به فى القدرة على السعى إلى الناس بمختلف ألوانهم واتجاهاتهم، وقد اتسم بالمرونة والانفتاح على الناس.. لقد كنت حزيناً عليه، وأعتبر حزنى على وفاته أعمق من أى حزن مرَّ بى.

لو عاش البنا

● **اختلفت طبائع وقدرات من تولوا مسؤولية قيادة جماعة الإخوان المسلمين، لكنى أسأل عن رؤيتك إذا كان البنا لم يقتل واستمر فى قيادتها: كيف ترى مستقبل الجماعة ومسيرتها إذا كان موجوداً ؟**

لو أطال الله عمره فلا شك أنه سيكون له تأثير فى سير الحياة غير ما حدث فيما بعد، وأنا أذكر لك ما كتبه روبير جاكسون من مقال عن الإمام البنا بعنوان: (الرجل القرآنى) قال فيه قبل وفاته: "لا ندرى ماذا تفعل به الأحداث، فقد يغير وجه التاريخ"، وبعد وفاته قال الكاتب نفسه: "إن الشيخ البنا كان فلتة من فلتات ذلك الزمان"، رغم صغر سنه فقد استشهد ولديه (٤٢) عاماً، فى حين بدأ حركته فى الدعوة فى سن العشرين عاماً، أى أنه أمضى عشرين عاماً فى تأسيس الجماعة وتطويرها وهو فى مقتبل الشباب.

● **إذا كنت قد نشأت أزهرياً، والتحقت بجماعة الإخوان وصرت عضواً بها، فإنك الآن ملك للأمة الإسلامية، تثق فيك وتجعل الفتوى التى تفتى بها رأياً عاماً لها: كيف صارت التحولات لديك فى هذا الشأن؟**

أنا بالفعل ملك أمتى الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها، لكنى لا أتنكر لدعوة الإخوان المسلمين، ولا أجحد أنى نشأت فى ظلها، وتعلمت من إمامها وإخوانه وتلاميذه، وصهرت فى بوتقتها حتى نضجت واستقللت فى العلم والفكر.

• **إذاً أنت على غير صلة تنظيمية الآن بها ؟**

نعم.. ليس لى أى وضع تنظيمى داخل جماعة الإخوان المسلمين.

• **أو لست على صلة بما يُسمى التنظيم العالمى للإخوان المسلمين ؟**

كان لى مشاركة من قبل، ثم استعفيت منها منذ عدة سنين لأتفرغ لخدمة الإسلام بالعلم والفكر والدعوة، وأعتبر نفسى كما ذكرت أنت من قبل ملكاً للمسلمين جميعاً، لكن هذا لا يعنى مرة أخرى تنكرى لفكر الإخوان ودعوتهم، وهم قد يعتبروننى منظرهم أو مفتيهم، كما أن كتبى تعد من مراجعهم الأولية وهم أول الناس قراءة لها.

موقف الإخوان الآن

• **لكن ما هو موقفهم هم منك ومن فكرك ؟**

تبنى الإخوان مقولاتى فى السنوات الأخيرة، خاصة حول التعددية وكانت مرفوضة أول الأمر، خاصة من خلال كلام الأستاذ البنا بأن الإسلام لا يقر الحزبية ، لقد كان يتحدث عن أحزاب زمنه، وكيف فرقت الأمة واستفاد الاستعمار من هذا التمزق، لكنهم أقروا التعددية وصدر منهم بيان بذلك، كما تبنوا رأيى فى إعطاء المرأة حقها فى الانتخاب والترشيح، ولى فتوى بذلك، وهذا تطور استفاد الإخوان من هذا التيار وما يتصل به من أفكار .

• **لكن هذا الإيمان النظرى للإخوان بأفكارك ونظرياتك وفتاواك هل تحول إلى سلوك وممارسة لديهم ؟**

ليس أدلّ على ذلك من أن مرشحتهم فى الإسكندرية د. جيهان الحلفاوى ؛ قد صورت الفتوى التى أصدرتها بحق ترشيح وانتخاب المرأة، ووزعتها على الناخبين، واستشهدت بها فى كل جولاتها الانتخابية.

الحقيقة أن الإخوان المسلمين الآن أصبحوا يقتربون من فكرى، وعناصر الشباب أكثر التصاقاً بهذا الفكر، أكثر من تغلب النزعة التقليدية عليهم، فهى أكثر ما تكون متغلبة على الكبار.. وقد أعلنوا مؤخراً استعدادهم لخوض التجربة الديمقراطية تامة وتداول السلطة.. لقد طلقوا العنف تماماً منذ زمن بعيد.